٣
أسلوب لا جرم
الأستاذ الدكتور
السيد محمد السيد سلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله الذى بيده مقاليد الأمور والصلاة والسلام على من أرسله بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً وعلى آله وأصحابه ومن سار على هديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فأسلوب (لا جرم) من الأساليب العالية التى قلَّ استعمالها فى اللغة والقرآن الكريم ، اهتم النحاة بهيكله ونوعه من جهة الاسمية والفعلية والعمل وهذا صنيعهم ، كما اهتم أرباب اللغة بمعناه وتأثر كل فريق بصاحبه ، وتناقل المفسرون ذلك ولم يزيدوا عليه وكان على البلاغيين بحث مغزاه ودواخله وذاك لبُّ عملهم وأساس بحثهم ، ولكنهم لم يفعلوا ولم يلحقوه بأى من الأساليب التى درسوها ، بل أهملوه كما أهملوا غيره مع ما يطويه من دقائق وما يكنه من فرائد تختص به دون سواه .

فالنحويون واللغويون أصَّلوه فرأوا فيه معنى : حقا وقطعًا وقسمًا ولابد ولا محالة ، كما فيه معنى الكسب ، وهذه الخصائص لو تأملها البلاغيون لاستخرجوا منها كنوزا تجلى وشائج الكلمات وما بينها من تفصيل وإجمال وترغيب وترهيب يعقبه أسلوب ينهى المصير ويجزم بما هو محتوم بعد أن يستقر القرار الذى لا يقبل الاستئناف ، ولكن قِلَّته فى الأساليب وندرته فى بيان الله حالت دون النظر البلاغى فيه أو الاهتمامِ بإلحاقه بأى من الأساليب كأساليب الإنشاء ولو غير الطلبى الذى رأوا أنه قليل الجدوى مع أنه عكس ذلك .

وهذا ما أردت تجلية شئ منه فى هذه الدراسة الموجزة التى أراها على وجازتها تفتح مغاليق وتنبه إلى تدبر مالم يتدبر فى الكلام العربى وفى كلام الله سبحانه .

لذا وقفت مع هذا الأسلوب محاولا استنطاقه وهو يضم بين سياقه فىكلام الله مالا طاقة لبشر بتصوره ويقطع بأمور لا تتبدل ولا تقبل ذلك ، وينبت حقائق لا تتغير فالوعيد به محتوم ، لذا قل استعماله فى أحكام الله وبيانه رحمة بالخلق ، ولم يذكر إلا فى أعتى المواقف وأشدها حين يبلغ الكفر مداه ويصل الشرك والافتراء على دين الله منتهاه ، فيُقابَل ذلك بترسيخ الحكم المقابل لرسوخ هذه الأمور " ولا يظلم ربك أحدا " .

هذا فى كلام الله وهو أعلى الكلام ، وفى كلام العرب قل استعماله أيضا ، وجاء بنفس المعانى التى أشار إليها اللغويون والنحاة ، وتدل بلاغتها على منتهى الحكم سواء فى المدح أو فى القدح أو فى القسم على شئ مَّا أو خالصًا بمعنى حقا أو قطعا .

غير أنه فى كلام البشر أهدأ منه فى بيان الله كثيرا وقد أشرت إلى شئ مما جاء فيه من كلام الأدباء ، وكلام الشعراء ، وهذا وذاك قليل جدا

وأحصيته فى كلام الله ولم يتجاوز الشواهد الخمسة والغرض فيها متقارب والسياق متباين .

درست خصائصه بين الآيات موازنا بين استعماله هنا وهناك وسر التعبير به دون سواه قاصداً من ذلك تحرير دلالته والخصائص البلاغية التى لا تكون إلا به ، والتذكير بمالم يلتفت إليه البلاغيون وهو خليق به ..

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير .

منتصف ذى الحجة ١٤٢٥ هـ

أسلوب (لا جرم)

ودلالته البلاغية فى اللغة والقرآن الكريم

ورد هذا الأسلوب فى كلام العرب ، ولكنه ليس بالكثرة التى نراها لغيره من الأساليب كأسلوب الإنشاء بأنواعه وكذا أسلوب لعل ، وعسى ، وليس ونحو ذلك .

وبقدر قلته فى كلام العرب واستعمالات الشعراء بالنسبة لغيره كانت قلته فى كلام الله الذى نزل بتلك اللغة مخاطبا لهم على قدر كلامهم ومتحديا بذلك بيانهم .

حيث ورد فى القرآن الكريم فى ثلاث سور فقط هى (هود-النحل – غافر) وأكثر وروده فى سورة النحل فقد ورد فيها ثلاث مرات ولذلك دلالة سيأتى بيانها خلال الدراسة وأما هود وغافر فلم يأت فى كل منهما سوى مرة واحدة .

وهذه المرات الخمس جاءت بتركيبة التزمت نهجاً واحدا وهو : وقوع أن واسمها وخبرها بعد " لا جَرَم " ولم يتقيد هذا الأسلوب بذلك فى الشعر بل تنوعت طرقه مع مجيئه أول الكلام ووسطه وآخره كما سيأتى خلال عرض بعض شواهده .

وقبل بيان ذلك نقف مع وجهة نظر اللغويين والنحويين فيه ليكون ذلك مرآة تجلى بلاغة الأسلوب بعد معرفة الوجوه المحتملة فيه .

أما معناه فى اللغة :

فباستقراء معاجمها نرى الدلالة اللغوية لـ (الجيم والراء والميم) تفيد معنى القطع قال ابن فارس : الجيم والراء والميم أصل واحد يرجع إليه الفروع فالجَرْمُ القطع ويقال لصرام النخل الجرام .. ومما يُردّ إليه

قولهم جَرَمَ أى كسب لأن الذى يَحُوزُه فكأنه اقتطعه ، وفلان جريمة أهله أى كاسبهم ..

والجُرْمُ والجريمة : الذنب وهو من الأول لأنه كسبُ ، والكسب اقتطاع وقالوا فى قولهم " لا جرم " هو من قولهم جَرَمْتُ أى كَسَبْتُ ، وأنشدوا :

ولقد طعنت أباعيينة طعنة جَرمتْ فزارة بعدها أن يغضبوا

أى أكسبتهم غضبا (١)

هذا كله يفيد معنى القطع والاستحقاق ، وسر التعبير به دون قطع أو استحق أنه شئ مكتسب اكتسبه لنفسه من يستحقه كما سنرى فى قوله تعالى "لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون "[هود/٢٢] السياق يفيد معنى حقا و قطعا أنهم كذلك وأنهم اكتسبوا ذلك لأنفسهم ، وسيأتى تفصيله بعد .

ويدعم ذلك ما ذكره ابن جنى فى باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) وعدَّ منه (جلف وجرم) ثم قال فهذا للقشر وهذا للقطع (٢)

وذكر الخليل أن : لا جرم يجرى مجرى لابد ويفسر حقا وقال ابن سيده : جرمه يجرمه جرمًا قطعه ، ولا جرم أى لابد وقيل معناه حقا(٣)

(١) معجم مقاييس اللغة (جرم) .
(٢) الخصائص ١٥١/٢ تحقيق :محمد على النجار - ط٢ الهيئة العامة للكتاب .
(٣) ينظر العين والمحكم والمحيط الأعظم (جرم)

وذكر ابن السِّيد البطليوسي : فى باب المثلث المختلف المعانى: الجَرْم بفتح الجيم : القطع ، والكسب ، والجِرْمُ بكسر الجيم الجسم والصوت واللون ،وبضمها الذَّنب (١)

وذكر الراغب الأصفهانى : أن أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجر ، ومعنى جرم كسب أو جنى (٢)

وهكذا دارت الدلالة اللغوية للمادة حول معنى القطع والكسب وهذه الدلالة هى الأصل الذى دار حوله المعنى الذى يوانم سياقه فى القطع بالشئ وعدم التهاون فيه وبيان وجه استحقاقه وسبب ذلك من بناء الكلمة نفسها ففيها معنى الكسب والاكتساب كما رأينا ، ولذلك حسن التعبير بها دون حقاً ولابد وحتماً ونحو ذلك . وهى بذلك أقوى دلالة من لفظ القسم حيث أحاطت بأمر آخر وهو اقترافهم لما يؤدى هذا المؤدى .

وقد أشار ابن منظور إلى ذات المعنى " الجرم : القطع ، وزاد عليه انشغاله بالعطاء اللغوى والنحوى للمادة فنقل الفراء : إنها كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة فجرت على ذلك وكثر استعمالهم إيَّاها حتى صارت بمنزلة حقا . والعرب تقول لا جرم لآتينك ، ولا جرم قد أحسنت وكذلك فسرها المفسرون بمعنى الحق ...

ثم قال ابن منظور فتراها بمنزلة اليمين " . وقال ثعلب : الفراء والكسائى يقولان : (لا جرم) تبرئة ، وكتب قول الأزهرى " وقد قيل (لا) صلة فى (جرم) والمعنى كسب لهم عملهم الندامة وأنشد ثعلب :

---

(١) ينظر المثلث القسم الأول ٣٩٤ تحقيق ودراسة : د / صلاح مهدى على الفرطوس – ١٤٠١هـ - دار الرشيد بالعراق .

(٢) ينظر المفردات " جرم " .

يا أم عمرو بَيِّنى لا أو نعمْ

إن تصرمى فراحة ممن صرمْ

أو تصلى الحبل فقد رَثَّ ورمْ

قلت لها بينى : قالت لا جرمْ

أن الفِراق اليومَ واليومُ ظلمْ

وفى حديث قيس بن عاصم : لا جرم لأفلَنَّ حدها ، قال ابن الأثير هذه كلمة ترد بمعنى تحقيق الشئ ، وقد اختلف فى تقديرها فقيل أصلها : التبرئة بمعنى لابد ، وقد استعملت فى معنى حقا ، وقيل : جرم بمعنى كسب وقيل بمعنى وجب وحق ، و(لا) رَدٌ لما قبلها من الكلام ثم يبتدأ بها كقوله تعالى " لا جرم أن لهم النار " أى ليس الأمر كما قالوا ، ثم ابتدأ وقال: وجب لهم النار (١)

هذه أمور دقيقة تفرقت فى حديث ابن منظور عن هذه المادة (جرم) وقد جمعتها تأصيلاً لدلالة المادة التى تعتمد عليها الدراسة وتبيينا لوجوه استعمالها فى اللغة ...

وقفه نحوية حيال هذا الأسلوب :

ذكر سيبويه فى [باب تُبنى فيه " أنَّ " على ما قبلها] : أن "جرم " فى قول الله تعالى " لا جرم أن لهم النار " عملت فى "أن" لأنها فعل ومعناها : لقد حق أن لهم النار ولقد استحق أن لهم النار ، وقول

(١) ينظر لسان العرب " جرم " ومعانى القرآن : للفراء ج٢ /٨ تحقيق : أ/محمد على النجار

المفسرين : معناها : حقا أنَّ لهم النار يدلك على أنها بمنزلة هذا الفعل إذا مثلتَ ، فجرم بعد عملت فى أنَّ عملها فى قول الفزارى :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة

جَرَمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أى أحقت فزارة .

وذهب الخليل : أن لا جرم إنما تكون جوابًا لما قبلها من الكلام ، يقول الرجل كان كذا وكذا وفعلوا كذا وكذا فتقول : لا جرم أنهم سيندمون أو أنه سيكون كذا وكذا .(١)

يفهم من هذا الكلام أن (جرم) عند الخليل وسيبويه فعل بمعنى حق أو استحق وقد عملت فى " أنَّ" بعدها فالمصدر المؤول من أن وما بعدها مرفوع على الفاعلية لجرم ، و (لا) نافية ردٌّ لما قبلها .

وذهب الكوفيون إلى أن (لا) نافية و (جرم) اسمها وهى بمعنى لابد ولا محالة ، و "أنَّ" على تقدير " منْ " أى لا جرم من أن لهم النار فـ(جرم) عندهم اسم (٢)

وذكر البغدادى : أن لا جرم فعل عند سيبويه بمعنى حقَّ يطلب فاعلاً ، ومصدر عند الفراء يطلب فاعلاً أيضا ، وهذا عندهما إذا كانت أنَّ بعدها ، وأما فى القسم نحو لا جرم لقد كان كذا فلا ، و (لا) عند سيبويه زائدة إلا أنها لزمت جرم لأنها كالمثل كذا قال الأعلم ..

---

(١) الكتاب ١٣٨/٣ تحقيق وشرح:عبد السلام هارون– دار الكتب العلمية – بيروت لبنان

(٢) الجنى الدانى فى حروف المعانى ص٤١٤ تحقيق : د / فخر الدين قباوة –ط٢ ١٩٨٣ م دار الآفاق الجديدة – بيروت .

وعند الفراء (لا) ركبت مع " جرم " وصارت بمعنى لابد ولا محالة ثم استعملت بمعنى حقا (١)

وذهب بعضهم إلى أن (لا) زائدة و (جرم) معناه كسب أى كسب عملهم الندامة وما فى خبرها على هذا القول فى موضع نصب (٢)

وذهب بعضهم إلى أن التقدير لا صدَّ ولا منع عن أنهم فى الآخرة فحذف الخفض وانتصب بتقدير حذف حرف الخفض وهذاقول الكسائى(٣)

وحكى الكوفيون فيها عن العرب وجوهاً من التغيير :

لا جر بإسقاط الميم .. ولا ذا جرم بزيادة ذا .. ولا ذا جر بغير ميم ، ولا أن ذا جرم ، ولا عن ذا جرم ، وأن زائدة وعين (عن) بدل من الهمزة كما فى قوله :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة

ماء الصبابة من عينيك مسجوم(٤)

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب السان العرب ٢٨٩/١٠ ت : عبد السلام هارون – ط١ ١٩٨٢ الخانجى – بالقاهرة .

(٢) ينظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج٣٦٣/٤ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – دار التراث .

(٣) ينظر : البيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات بن الأبنارى ج١١/٢ تحقيق : د/طه عبد الحميد – الهيئة المصرية .

(٤) ينظر : الكافية فى النحو : لابن الحاجب شرح الرضى ٣٥١/٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

لا جرم ومعنى القسم :

سبق قول الفراء : وكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة حقا ، ألا ترى أن العرب تقول لا جرم لآتينك ، لا جرم قد أحسنت ...

وقد استنبط منه العلماء أن "لا جرم " بمنزلة اليمين أى أنهم يستغنون بها عن القسم قاصدين بها معنى حقا (١)

قال المرادى : والظاهر أن (إنّ) إذا كسرت بعدها فهى جواب قسم مقدر بعد "لا جرم " عن لفظ القسم مراداً ويؤيد ذلك أن بعض العرب صرح بالقسم بعدها فقال : لا جرم والله لأفارقنك (٢)

وقال صاحب الكافية الشافية :

و(جَيْرَ) أو (جَيْر) ينوب عن قسَم كذا ينوب عنه أيضا (لا جَرَم)

قال ابن مالك فى شرحه يقال (جير لأفعلن) و (لا جرم لأفعلن) فيستغنى عن ذكر المقسم به بـ(جَير) و بـ(لا جرم) ... ومن الاستغناء بـ (لاجرم) قول الراجز :

أسَأتَ إذا خالفتنى ولا جَرَمَ (٣)

وذكر الفيروز أبادى الوجوه التى ذكرها الكوفيون فيها – كما سبق ثم قال : أى لابد أو حقا أو هذا أصله ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم فلذلك

---

(١) شرح التسهيل : لابن مالك٣/٢٢٠ تحقيق :د/عبد الرحمن السيد –ط١١ ١٩٩٠ هجر للطباعة والنشر .

(٢) الجنى الدانى ص ٤١٥ . وينظر : ارتشاف الضرب من لسان العرب : لأبى حيان ١٧٨٩/٤ تحقيق وشرح : د/ رجب عثمان –ط١ ١٩٩٨ الخانجى .

(٣) شرح الكافية الشافية ٨٨١/٢ ، ٨٨٢ تحقيق : د / عبد المنعم هريدى .

يجاب عنه باللام فيقال : لا جرم لآتينك (١) ، كل هذا يرجح أنه تركيب واحد يفيد معنى القسم شأنه شأن (لا أقسم) غير أن لكل تعبير دلالته التى توائم سياقه ومقامه ، وكما أن اجتماع (لا) مع أقسم يفيد التحقيق والتوكيد كما نقول لا أوصيك بكذا ، ولا أحلف على كذا والمراد تحقيق الوصية وتوثيق الحلف كذلك هى مع (جرم) كما فى لابد ولا محالة ولا مناص من هذا الشئ ، وقد نابت مناب القسم كما رأينا فى كلام العرب فهى قسم بلفظ نائب مناب القسم ولكنه يأتى فى مقام لا يستقيم فيه لفظ القسم الصريح ومن ثم جاء بعدها حرف التوكيد فى كل شواهدها القرآنية ، وقد ورد بعدها التحقيق كذلك فى بعض شواهد العرب كما رأينا فى لا جرم لآتينك ، ولا جرم لأفعلن ، ولا جرم قد أحسنت .

وذكرت بنفس المعانى السابقة الدالة على التحقيق والقسم فى تراث الأدباء نثرا وشعرا وهو قليل كما سبق ومنه فى النثر ما ذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر : وحدثنى هذا أبو الفضل قال : قلت يوما لابن حماد فى كلام جرى بينى وبينه أنت بحر وأنا نهر فقال : لا جرم أنت عذب وأنا ملح (٢)

فهذا الاستعمال يدل على أنه يؤيده ويزيد كلامه توثيقا فيعطى معنى حقا ويذكر أيضا قصة بشربن أبى خازم وقد هجا أوسا نظير إبل أخذها من الحاسدين له فأغار أوس على الإبل واكتسحها وطلبه ، ولم يستطع أحد من أحياء العرب أن يجيره من أوس وما لبث أن أسَرَه فأشارت عليه أمه أن يعفو عنه ويرد عليه إبله ويحبوه فإنه لا يغسل هجاءَه إلا مدحُه فأخبره أوس بما قالت أمه فقال : لا جرم والله لا مدحت أحداً حتى أموت غيرك ، ففيه يقول :

---

(١) القاموس المحيط " جرم " .

(٢) يتيمة الدهر (تتمة يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر : شرح وتحقيق : د/مفيد قميحة ص ٢٢ - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط ١٩٨٣ م

إلى أوس بن حارثة بن لأم

ليقضى حاجتى فى من قضاها

وما وطئ الثرى مثل ابن سعدى

ولالبس النعال ولا احتذاها (١)

فقد حقق بها بشر القسم ووثق بها الخبر وأراد أن يقنع صاحبه بقبول رأيه وانقطاعه لمدحه وعدم تجاوز حده .. وقال ياقوت الحموى : وحدث اسحاق قال : دخلت على الأصمعى فأنشدته أبياتا قلتها ونسبتها إلى بعض الأعراب فجعل يعجب بها ويرددها فقلت له إنها بنات ليلتها فقال : لا جرم أن أثر التوليد فيها بين فقلت : ولا جرم أن أثر الحسد فيك ظاهر (٢) فاستعملت هنا داخلة على " أنّ " لتدل على أنها بمعنى حقا أو قطعا كما هو شأنها .

واستعملها القاضى شريح بمعنى اليمين حين قال له رجل : يا أبا أمية قضيت والله يجوز قال وكيف ذاك ؟ ويحك قال : كبرت سنك واختلط عقلك وارتشى ابنك فقال شريح : لا جرم لا يقولهن أحد بعدك فأتى الحجاج فقال والله لا أقضى بين اثنين قال : والله لا أعفيك أو تبغينى رجلاً فقال شريح : عليك بالعفيف الشريف أبى بردة بن أبى موسى فاستقضاه الحجاج وألزمه سعيد بن جبير كاتبا ووزيراً (٣) وقال رجل لآخر : (أبوك الذى جهل قدره وتعدى طوره فشق العصى وفرق الجماعة ، لا جرم لقد هزم ثم

(١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب : للثعالبى ١١٨ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم – دار المعارف .

(٢) معجم الأدباء ٦ / ٤٣ – دار الفكر ط٣- ١٩٨٠ م .

(٣) عيون الأخبار : لابن قتيبة ج١ /٦٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

أسر ثم قتل ثم صلب ، قال الآخر : دعنى من ذكر هزيمه أبى ومن صلبه ، أبوك ما حدث نفسه بشئ من هذا قط (١)

وهكذا نراها فى النثر على قلتها داخلة على حرف التحقيق تارة، وبمعنى حقا أخرى وتحل محل اليمين ثالثة ، ولو وضع شئ من هذا موضعها لنبت العبارة وجفا الأسلوب وذاك خير دليل على بلاغة المتحدث ووثاقة المعنى فى نفسه وبيان معنى القطع والكسب المسيطر على أصل المادة والمحقق لسر التعبير بها ، فالذى قال (لا جرم أنت عذب وأنا ملح) لاشك فى أنه تسبب فى ذلك واكتسبه لنفسه ، فله دخلٌ فيه وكذلك شأن الذى قال : لا جرم أن أثر التوليد فيها بيّن ... الخ

فوضعها فى النثر مطابق لما رأيناه فى كلام اللغويين وما عرضوه من أقوال دون قلق فى استخدامها ولا ثقل فى مقامها وسياقها .

أما فى الشعر فهى قليلة الاستعمال أيضا واستعمالها فيه بهذه المكانة من سمو المعنى وارتقاء الأسلوب والتعبير الدقيق عن الخوالج والشعور ، أيضا نراها تتساوق مع سياقها بهذه الدرجة التى رأيناها فى النثر ، فتأتى آخر البيت من الشعر وتأتى بين الكلام وقد تأتى أول البيت يعقبها فعل أو وسطه يتلوها نداء كما سنرى .

ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن هانى الأندلسى " يمدح أحد الملوك"

وأنت تجود بمثل البكار من التبرفى مثلها من أدم

إذا عرب لم تكن فى الصميـ ـم ممن نمتك فتلك العجم

فلو نسبتْ يمنٌ كلها إليك لقلنا لها لا جرم

---

(١) السابق /٢٣٣

بحيث الأكفُّ طوال إلى مآربها والعرانين شم

وإنك من معشر طفلهم يُتوَّج قبل بلوغ الحُلُمْ (١)

نلحظ أن تركيبها هنا يدل على أنه لا تصلح أن تتنفك عنه (لا) وتكون رداً لما قبلها كما رأينا فى بعض الآراء النحوية سابقة الذكر ، بل هى قول واحد وتركيب متمازج يثمر معنى واحداً يناسب سياق المدح بالكرم وعموم الأثر وعلو المكانة وارتفاع المنزلة بين العرب والعجم ومن ثم :

فلو نسبت يمنّ كلها إليك لقلنا لها لا جرم

فمعنى (حقا) هنا يفرض نفسه ، أى لا جرم أنه يستحق ذلك ، والبيت بعده يعضد المعنى ويشد أزره لأنه تعليل له .

بحيث الأكف طوال إلى مآربها والعرانين شم

وهذا يدل أيضا على تساوق العبارات وتصاقب التعبير بـ (لا جرم) مع معانيها ففيها معنى الكسب ، أى هذه المكانة اكتسبها لنفسه واستحقها من خلال عمله ولذا لا يصلح مكانها حقا ، ولا قطعا ولا قسما وإن كانت بمعانيها وإنما (لاجرم) تضم ذلك بين جنبات حروفها وتكسب المعنى قوة لا تحققها مُرَادِ قائلها ....

كما أن البيت الذى يليه يفيد معنى التأصيل على هذا الطبع من الكرم والشموخ واستحقاق تلك المكانة :

وإنك من معشر طفلهم يتوَّج قبل بلو الحُلم

(١) ديوانه : ص ٣٣٢ – دار صادر – بيروت .

فالبينة تنبت على ذلك وتشب عليه ، فلا تكلف فى عمل ولا ادعاء حسب وشرف ، فكان لأسلوب (لا جرم) بين هذا الوسم مكانة عالية فى التعبير عن المراد واستحقاقه تلك الأوصاف وثباتها له قطعا ولذا كان وسم البلاغة الأعلى (لكل مقام مقال) ، ومع عظمة هذا الأسلوب تغافل عنه الشعراء حتى إن مَنْ يقرأ ديوانا بكامله لا يكاد يراه ، ولم يلتفت إليه إلا قليل منهم كما رأينا عند أشعر المغاربة (ابن هانئ الأندلسى) وليس فى شعره غيره على نحو ما رأيت ...

وكذلك الشأن عند أشعر الطالبيين صاحب المجازات النبوية ومجاز القرآن الشريف الرضى العلوى وهو تعبير فريد فى شعره أيضا على نحو ما رأيت ذلك فى قصيدة مطلعها :

ألمع برق أم صرم بين الحرار والعلم

تضحك عن وميضه لماعة من الديم

يتحدث فى نهايتها عن حيَّة ، ثم يصفها فى آخر بيت من النص بقوله :

صلعاء لا يعطى الهدى دليلها فلا جرم (١)

والبيت فيه تقديم وتأخير وكأنه يريد أن يقول صلعاء لا جرم لا يعطى الهدى دليلها ، فهى حقا أقوى من أن يُعرف مكانها ويتمكن من الوصول إليها ، وقد اكتسبت هذا لنفسها بقوة فراستها ودقة صنيعها ولذا وقع التعبير بـ (لا جرم) موقعه .

وكذلك الشأن فى قول بديع الزمان الهمذانى :

---

(١) ديوانه ٢٨١/٢ صححه وقدم له : د / إحسان عباس – دار صادر – بيروت .

يا آل عصم أنتم أولو العِصَم لم توسموا إلا بنيران الكرم

لا ينزع الله سرابيل النعم عنكم فلا تخطوبها دون الأمم

طابت مبانيكم وطبتم لا جرم يا سادة السيف وأرباب القلم (١)

فمجيئها هكذا فى سياق المدح والدعاء تعضيد وتقوية لما يريد أن يقوله ويشهد به ولو قال " وطبتم حقا يا سادة السيف وأرباب القلم لاستقام المعنى ولكنه لا يفى بما وسمهم به لأن صنيعهم هو الذى وصل بهم تلك المكانه . وجرم فيها معنى الكسب والاستحقاق كما سبق . وله نص آخر من قصيدة مطلعها :

يا ملك الشرق عمدة الدول

ويا علا المكرمات لا الحيل

يقول فيها :

ومن سمت فى العلا همته

يخطب ما خطبت من قلبى

لا جرم اجتبت كل مخترق

فيه وادخلت كل مدّخل

---

(١) ديوانه ١٣٢ دراسة وتحقيق : يسرى عبد الغنى عبد الله – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

وشِمت دون السيوف سيف فمي

وقلت لا ذاعمى ولا شلل (١)

جلى أنها فى المدح أيضا ، ولو قال حقا أو قطعا أو حتما أو لا محالة لاستقام له المعنى غير أنه لا يبلغ ماله من مكانة وسمو واقتدار تكونت فى نفسه واكتسبها من فعله ، ذاك الذى يصوره هذا الأسلوب (لا جرم) .

وهو المناسب أيضا لقوله اجتبت وادّخلت ، الأول فيه معنى الاجتلاب ففى قول الله تعالى " وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها " .

قال ابن سيده : معناه عند ثعلب : جئت بها من نفسك ... وافتعلتها من قبل نفسك وهو فى كلام العرب جائز أن يقول لقد اختار لك الشئ واجتباه وارتجله (٢) وكذلك فى الادّخال معنى الافتعال ، والمدَّخل يشبه الغار يُدخَلُ فيه وهو مفتعل من الدخول (٣) وكل هذا يؤكد مواءمة الألفاظ وتآزرها فى بناء المعنى .

وهكذا رأيناها فى نثر الكلام وشعره قليلة الاستعمال ولم يلتفت إليها المشهورن من الشعراء كامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى وأوس وكعب والشماخ ولبيد وطرفة وعنترة وغيرهم ممن لهم فى الشعر مكانة وطبقة ...

وعلى قدر قلتها فى الكلام العربى كانت قلتها فى القرآن الكريم حيث وردت خمس مرات إجمالها :

---

(١) ديوانه ١٢٤ .
(٢) ينظر لسان العرب (جبى)
(٣) السابق (دخل) .

١ – قوله تعالى : " لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ " [هود/٢٢] .

٢ – وقوله تعالى : " لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ " [النحل / ٢٣]

٣ – وقوله تعالى : " وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ "[النحل /٦٢]

٤ – وقوله تعالى : " لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ "[النحل/١٠٩]

٥ – وقوله تعالى : " لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ " [غافر / ٤٣] .

هذه شواهد (لا جرم) فى القرآن الكريم جاءت كلها خلال الحديث عن المعاندين الجاحدين لتقطع بمصيرهم وتدل على استحقاقهم له بما كسبته أيديهم وجنته عقولهم ، وكلها تعطى معنى حقا .

قال الدَّا مغانى " لا جَرَمَ يعنى : حقا ، وقد جَرَمَ الشئ أى حَقَّ ودخول " لا " على " جرم " ليَدُل على أنه جواب الكلام قول الله تعالى فى سورة هود " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ..."(١)

وقد لازمتها (لا) فى شواهدها القرآنية كما لازمت (أقسم) كذلك فهى كلمة واحدة تعطى دلالة تختص بها فى معنى القطع والاستحقاق

---

(١) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز : لأبى عبد الله الحسين محمد الدامغانى ج١/٢٤٣ تحقيق : محمد حسن أبو العزم – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٤هـ .

وتودى مؤدى اليمين غير أنها تختلف عن (لا أقسم) فهى لم تبرح فى القرآن الكريم الحديث عن هؤلاء الخاسرين المفترين والحديث عنهم فى القرآن كثير غير أن هذه المواقف استدعت هذا التعبير(لا جرم) كما أن غيرها استدعت غيره ، ولكل مقام ما يناسبه .

وهى تختلف بذلك عن (لا أقسم) حيث جاء التصريح بلفظ القسم فى أمور جليلة النفع يختص بها الحق سبحانه لا دخل للإنسان فيها كمافى " فلا أقسم بمواقع النجوم ..." و " فلا أقسم برب المشارق والمغارب " و " لا أقسم بيوم القيامة ... "

وهكذا لا تصلح هنا " لا جرم " ولا تصلح هناك " لا أقسم " وإن كان كله فى الرد على المكذبين ، ومراده التحقيق والتوثيق إلا أن ههنا فى شواهد (لا جرم) تبليغ بمصيرهم وبيان اكتسابهم له .

وسنقف مع هذه الشواهد على ترتيبها لتتجلى لنا دلالة كل منها خلال سياقة

الشاهد الأول : جاء فى سورة هود فى سياق حديث الحق سبحانه عن أظلم الناس الذين افتروا على الله كذبا بزعمهم أن محمداً اختلق القرآن من عنده وكذبوا على الله وصدوا عن سبيله وطعنوا فى دلائل نبوة حبيبه صلى الله عليه وسلم . وعمَّ كفرهم الدنيا والآخرة أولئك الذين فصَّل القرآن مواقفهم تارة وأجملها أخرى بعد أن أقسم على إحكام آياته وتفصيلها من لدن حكيم خبير مما يستدعى الحث على وجوب وإلزام تفرده بالعبادة وانحصار مهمة النبى فى الإنذار والتبشير " الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ " [هود /١، ٢]

بعد هذا البيان والإلزام المتضمن التحذير من مخالفته والزيغ عنه أو التصدى له ، حدث منهم عكس كل ذلك ، ووصل بهم الحدّ إلى ادعاء الافتراء فحكم عليهم بالخسران والابتعاد عن رحمة الله وأن عملهم فاسد وصنيعهم باطل ولا حصاد لهم من ذلك إلا النار " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ "[هود/١٦] .

هؤلاء هم الذين حكم عليهم بأنهم أظلم الناس لافترائهم على الله كذبا وصدهم على سبيله مما أدى فى النهاية إلى هذا الحكم الذى لا رجعة فيه ولا مناص منه : " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ " [هود/٢١، ٢٢] ليس لهم حديث قبل هذه الآية حتى تكون " لا " ردا له كما حكم بذلك بعض العلماء وقد سبق فى بيان موقف النحاة من (لا جرم) بل الآيات كلها تتحدث عن افترائهم وكذبهم وظلمهم وصدهم وبيان ضعفهم " أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون " ثم الحكم عليهم بموطن الشاهد أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون " وهذا مما يرجح معنى حقا وقسما وحتما ولابد ولا محالة وما شابهه ،وانطواء معنى الاكتساب بين ذلك ، لأنهم حصدوا هذه النتيجة من صنيعهم الحابط وعملهم الباطل فكان الموقف جديرا بهذا الأسلوب(لا جرم) وفيها ما قال الكسائى أيضا " لا صدّ ولا منع " أى لا صد عن هذا المصير شئ ولا منع منه أمر ، فهى تركيب واحد (لا جرم) يعطى هذه الدلالة المؤكدة لهذا المصير والدالة على اجتلابهم له ، ومن ثم قال هم الأخسرون " لأنهم أكثر صدا عن سبيل الله وأكثر افتراء على الله فلا ريب كانوا أكثر خسرانا ، مع أنه سبحانه قال فى نظيرتها فى سورة النحل " لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ " [١٠٩] وهو موقف افتراء

وكذب أيضا (كما سيأتى فى دراستها) ولكنه من قوم كفروا بآيات الله بعد ايمانهم فطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وحكم عليهم بالغفلة كما قال عز من قائل " أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " [النحل / ١٠٨] فما كان منهم إلا الصدَ عن سبيل الله والانغماس فى الضلال والتعامى عن الحق الذى أدى إلى هذا الوسم (الغافلون) ، فكان سببا فى خسرانهم والحكم عليهم بهذا المصير المكتسب أما فى آية هود فكانت لهم حركة ضلال وتضليل وصدود وصدَ فالفرق بين الموقفين هو هذا الصد المنصوص عليه فى سورة هود " الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ " [١٩] ، فلم يوسموا بالغفلة كما وسموا هناك فى سورة النحل، بل كانوا يعرضون ويمنعون غيرهم عن هذا الدين القويم " ويبغونها عوجا " قال البقاعى : بإلقاء الشبهات والطعن فى الدلائل مع كونها فى غاية الاستقامة ...

ولما كان تكذيبهم بالآخرة شديداً قدم قوله : (بالآخرة) وأعاد الضمير تأكيداً لتعيينهم وإثبات غاية الفساد لبواطنهم واختصاصهم بمزيد الكفر فقال : " هم كافرون " اى عريقون فى هذا الوصف ... (والصد) المنع بالإغراء الصارف عن الأمر ... " (١)

وكان ذلك سببا فى مضاعفة العذاب ، فإذا صدوا هم عن الدين صدوداً وصدوا غيرهم عنه صداً استحقوا تضعيف العذاب لأنهم ضلوا وأضلوا ، فهذا موجب الأخسرين دون الخاسرين من طريق المعنى ... وفى

---

(١) ينظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ج٣/٤١٥ ، ٥١٥ - ط١ ١٩٩٥ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

آية النحل لم يذكر ما يوجب هذه المضاعفة(١) بل ذكر ما يدل على تفردهم بالخسران الأعظم .

وعلى كل فـ (لا جرم) هى المناسبة للموقف الداعمة للحكم الصارفة عن تعديله أو تبديله لما سبق فى علم الله أنهم لا يهتدون بعد هذا الاجتراء والافتراء على الله ، وشهادة الأشهاد والتنبيه بإحلال اللعنة عليهم ... ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ."

وههنا سؤال يطرح نفسه : لماذا هذا الموقف بالذات نصَّ عليه بهذا الأسلوب " لا جرم " وللمفترين على الله كذبا فى القرآن مواقف كثيرة ليس فيها هذا الختام ؟ فمثلا فى سورة الأنعام " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" [٢٠ ، ٢١] هكذا كان الحكم على افتراء الكذب " إنه لا يفلح الظالمون " من غير قطع بخسرانهم فى الآخرة كما رأينا فى لا جرم.

والفرق بين الموقفين أن الموقف هناك فى آية هود كما رأيناه : افتراء وعدم استجابة وإعراض وصد وضلال وإلقاء شبهات وطعن فى الدلائل وحرب ظاهرة وباطنة أدت إلى مضاعفة العذاب فكان هذا الحكم " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون " أما هنا فى آية الأنعام فهى مواقف جحود وغيرةٍ وحسد وكل هذا عسى أن يتبدل لذا كان الحكم تهديدا ووعيدا " إنه لا يفلح الظالمون " فتنبهوا لذلك ، والأدلة على هذا الجحود فى السورة كثيرة منها مثلا قوله تعالى " وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : للإسكافى ص ١٦١ المكتبة التوفيقية بالحسين ، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن : لأبى يحيى زكريا الأنصارى ص ٢٦٢ تحقيق : الصابونى – نشر مكتبة الصابونى ص ١٩٨٥ م

أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون " [٨] وهذه الآية المستشهد بها " الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. فهو مبشر به عندهم فى التوراة ومع ذلك كانوا ينكرون .

وقوله تعالى : " قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " [٢٣] وكذلك " وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون " [آية ٣٧] فكل سياق له ما يناسبه ، وكل مقام له ما يقتضيه، وكذلك الشأن فى قوله تعالى " مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ " [يونس ١٧]

هؤلاء الذين اكتسبوا جرما عظيما بقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم – ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، لأن فيه ذما لآلهتهم التى يعبدونها من دون الله ، كانوا أيضا من أعظم الناس ظلما ، غير أن السياق سياق تخويف من هذا القول وعاقبته لو استمروا فى طلبه أو أصروا عليه فلم يقطع بخسرانهم بل بين عاقبة من يفعل ذلك بأنه " لا ينجو من محذور ولا يفوز بمطلوب " (١) وكذلك من أشد المواقف التى استُعظم فيها الظلم قوله تعالى : " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ " [الأنعام / ٩٣] .

---

(١) ينظر : روح المعانى للألوسى ٨٨/١١ دار الفكر .

فليس هناك ظلم أظلم من هذا الكذب وذاك الادعاء والافتراء (ادعاء النبوة والرسالة) هؤلاء أظلم الناس خاصة بمواقفهم التى وقفوها كمن ادعى الوحى منهم ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ذكرت الآية بعدهم الظالمين بصفة عامة لبيان خصوصية التخويف والتهديد ثم عموميته بعد ذلك واشتراك هؤلاء وهؤلاء فى نوع من العذاب يضاهى عملهم ويناظر غرورهم ، وهو عذاب الهون نظير الافتراء والاختلاق والمواقف التى لا تحدث إلا من متكبر مغرور ومثل هذا عاقبته الهوان " اليوم تجزون عذاب الهون " (أى العذاب الجامع بين الإسلام العظيم والهوان الشديد والخزى المديد بالنزع وسكرات الموت..." (١)

وهكذا السياقات يذكر فيها ما يناسبها لفظا ومعنى ، لفظا يتوافق مع أقرانه ، ومعنى يوحى بهذا اللفظ ويحرر وجه فائدت(تنزيل من حكيم حميد)

ويلاحظ أن السور الثلاث التى ورد فيها هذا الأسلوب (لا جرم) استهلت استهلالاً يخرس الألسن تجاه كل كذب وافتراء يتعلق بالقرآن الكريم كما رأينا فى أول هود " ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " وكذا أول غافر " حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم" أما سورة النحل فقد استهلت بأكبر شئ دار حوله جدالهم وكفرهم وعنادهم وهو موضوع البعث واستعجالهم إياه وتنزيه الله عن الشريك ، ومن ثم ذكرت فيها (لا جرم) ثلاث مرات ، لأنهم كذبوا أمر الله تارة ، واستعجلوه أخرى وأنكروه كثيراً وجعلوا لله شركاء ، فجاءت آية واحدة ألمت بكل ذلك على سبيل الإجمال : " أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون " وجاء تفصيلها مشوبا بقدر كبير من نعم الله عز وجل ؛ ليعظم التذكير فيكون وقع العذاب أشد وحدَّه أحد ، وتكررت (لا جرم) بين ذلك ثلاث مرات سبقت الأولى بفيض من النعم وقعت بينها وبين الاستفتاح القاطع بإتيان أمر الله وتنزيهه عن كل مالا يليق بذاته المقدسة ، حيث

(١) نظم الدرر ٢ / ٦٧٥ .

ذكرهم بقدرته فى تنزيل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ،وهذا هوطريق الهداية : يأمرهم باتباعه ويرهبهم من الزيغ عنه ، وكل شئ يقود إلى النجاة نعمة وإن كان إنذاراً ، ثم تدرجت النعم بعد ذلك من الأعلى إلى الأدنى بادئة من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان والأنعام وبيان أجل منافعها وإنزال الماء من السماء وجعله سببا فى إنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ثم نعم التسخير بادئة بتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وتسخير البحر وبيان ما فيه من جلائل النعم للأكل والتحلى ثم إلقاء الرواسى التى بها تثبت الأرض فلا تميد وجعل منها ومن غيرها علامات يهتدى بها الخلق ، أفبعد كل ذلك تنكر ألوهيته ؟ ولذا ختمت هذه النعم بإنكار يتلوه إنكار ولوم يتلوه لوم وتعنيف يتلوه مثله " افمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم " !!

فهذا الفيض من النعم قليل من كثير لا يُعلم حدّه ، وأعظم هذه النعم بعد كل ذلك " إن الله لغفور رحيم " وفى هذا الختام دلالة على التحريض على الرجوع إليه وإطماع لمن آمن به وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق أنه يتجاوز عن زلله ، وتلك صفات لا يتصف بها إلا قادر عالم حكيم " يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لا جَرَمَ أَنَّ اللّه يَعلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُ المُستَكبِرِين " [النحل / ١٩-٢٣]

هذه أوصاف آلهتهم المزعومة (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) قال الرازى : (هذا تأكيد فى المعنى وزيادة فيه فكما أنها لا تخلق غيرها فهى مخلوقة لغيرها) وعاود هذا التأكيد فى الوصف الثانى " أموات غير أحياء

وما يشعرون أيان يبعثون " (لأنه كلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان وهم فى نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبى فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة " (١) وفائدة الوصف بقوله " غير أحياء " بعد قوله " أموات " أنهم أموات لا يعقب موتهم حياة احترازا عن أموات يعقب موتها حياة كالنطف والبيض والأجساد الميتة وذلك أبلغ فى موتها كأنه قال : أموات فى الحال ، غير أحياء فى المآل) (٢) وهو دليل على أنها لا شأن لها ولا قيمة .

وَعِلمُ الله سبحانه وتعالى ما يسرون وما يعلنون[بعد كل هذا البيان المشتمل على نعمه الدالة على عظمته وقدرته ، وبيان ما يعبدون من دونه] لا يستدعى القسم ولا ما يشبهه من ألفاظ تدل على التحقيق ونفى الشك والتوثيق فلماذا بعد كل ذلك قال سبحانه " لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ " ؟

هذا من باب مخاطبتهم على قدر تغافلهم وتعاميهم ، لأن من أمامه هذه الدلائل الجلية والبراهين الساطعة على القدرة التى لا تُحَدّ والنعم التى لا يستطيعها غيره ثم بعد ذلك يُجعل له شريك أو يعبد غيره، لا ريب أنه فى حالة اهتزاز وتذبذب يحتاج الكلام معه إلى توثيق وتحقيق فجاء التعبير بـ (لا جرم) تدليلا على سفاهة عقولهم التى لم تطمئن إلى ألوهية الواحد وقد غمرت فى نعمه التى لا تحصى ، فقد اكتسبوا بأفعالهم أن يكون توثيق العلم معهم بهذا الأسلوب .

واللفظ نفسه يشعر بالوعيد والتهديد ويطوى ذلك ، ويتم تفصيله فى قوله "يعلم ما يسرون وما يعلنون "

---

(١) ينظر تفسيره ٢ / ١٦ ـ دار الفكر .
(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ص ٣٠٥ .

قال أبو حيان " وفى قوله " يعلم ما يسرون وما يعلنون " وعيد وتنبيه على المجازاة " (١)

وقال الرازى " والمعنى أنه قال يعلم أن إصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لأجل شبهة تصوروها أو إشكال تخيلوه ، بل ذلك لأجل التقليد والنفرة عن الرجوع إلى الحق والشغف بنصرة مذاهب الأسلاف والتكبر والنخوة ، فلهذا قال " إنه لا يحب المستكبرين " وهذا الوعيد يتناول كل المستكبرين " (٢) وهذه الدلالة التى أشعها التعبير لا تتجلى فى قولنا حقا وحتما ولابد ولا محالة أو قسما او نحو ذلك أما معنى القطع الذى يجليه أسلوب (لا جرم) ففيه وعيد وتحذ ير من التمادى فى هذا التكبر والعناد لأن التمادى فيه يقطع بعذاب لا يوصف .

ومن ثم لم ينص هنا على نوع من العذاب معين بخلاف آية هود السابقة ، لأنه ساق هنا من الدلائل على ألوهيته ووحدانيته وقدرته مالا طاقة لأحد سواه به وبين لهم شأن آلهتهم المزعومة على وجه التفصيل وكأنه يخاطب من لا يعقل وفى هذا نوع من التحايل والمعالجة لعقولهم عسى أن يرتدعوا ، فإن لم يحدث ارتداع بعد ذلك وتنبه إلى الحق وتمسك به فإن العذاب غير منصوص عليه بمعنى أنه لا طاقة لبشر بمعرفته ، ولما كانوا سببا فى هذا جاء التحقيق بـ (لا جرم) مناسبة لحالهم ، وقوله سبحانه " إنه لا يحب المستكبرين " توصيف تام لواقعهم بأنهم فعلوا ذلك طلباً للتكبر والتعالى ولكنهم لا يستطيعون ذلك أمام قدرة الله الفائقة فما هو منهم إلا صد وطغيان .

وسيدة الموقف هنا " أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون" إنكار وتوبيخ بعد بيان النعم الدالة على الخالق ، فهذا هو الإله الجدير بأن يُعبد يعلم ما تسرون وما تعلنون ، أما هؤلاء الذين تدعون من دون الله لا

---

(١) البحر المحيط ج٥ /٤٨٣ ـ دار الفكر .
(٢) تفسيره ٢٠ / ١٧ .

يخلقون شيئا فضلا عن أنهم يخلقون ، كما أنهم أموات وليس هذا من صفات الخالق ، غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، ثم يأتى هذا القطع بالوحدانية (إلهكم إله واحد) يوازره هذا القطع بعلمه ما يسرون وما يعلنون .. لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين " نلحظ هنا أن السياق كله فى حديث الحق عن ذاته المقدسة وخصوصياته المتجلية فى بيان نعمه فلم يحدث فى البيان وعد بعذاب كما حدث فى آية هود .. لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون " لأن الموقف فى سورة النحل أكبر من أن يحدد فيه عذاب ، فهو كله مع الخالق الأعظم فى سياق نعم تُذكّر بألوهيته ، أما فى آية هود فقد كانت المواقف مع بشر يوحى إليه وهو المصطفى صلى الله عليه وسلم من الآية الثانية فى السورة " ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ..." إلى أن قال له ربه " فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل . أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين "

فالآيات تقص حواراً بشريا تجلت فى نهايته النصرة للحق وكان حتما أن تظهر نتيجة الخاسر الذى افترى وكذب وصَدَّ غيره عن هذا السبيل فكانت نتيجته " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون " وهذا هو الفرق بين موقف يُحَدِّدُ فيه العذاب تسلية وتقوية لجانب المنتصر ليعلم أن لجهاده وكفاحه فى التبليغ ثمرة ونتيجة فلا يترك بعض ما يوحى إليه ولا يضيق صدره بسبب عنادهم فلهم نهاية هى هذه ، بخلاف حديث الحق عن ذاته وسوق نعمه فهو وعيد خفى تكفيه بعد هذا التفصيل تلك الإشارة " لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ " وهذا هو الشاهد الثانى فى أسلوب " لا جرم " الأول فى سورة النحل .

أما الشاهد الثالث : من شواهد هذا الأسلوب وهو الثانى فى سورة النحل فقد جاء بعد تسع وثلاثين آية من الشاهد الأول وتجلى فيه نوع

العقاب وكان حتما أن يتجلى حيث صدرت منهم (بعد بيان كل هذه النعم والفرق بين الخال وغير الخالق) افتراءات تخللتها تهديدات وفروق بين من تكبر ومن اتقى وذلك كقوله تعالى " وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ " [الآية ٢٤] وجاء بعدها تذكير لهم بمصير من سبقهم بهذا المنهج العنيد " قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون " إلى آخر الآيات الشارحة مصير هؤلاء ثم بيان الفرق بين هؤلاء وبين المتقين حثا على الابتعاد عن التكبر والالتزام بالتقوى وترغيبا فى طريقها " وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ... "

وهكذا جاءت الآيات ترهب تارة وترغب أخرى ومع كل ذلك "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " وهذا افتراء آخر وقع منهم بين وعدٍ ووعيد فلما لم يتأثروا بشئ من ذلك جاء هذا الخبر الحاسم القاطع بالنهى عن اتخاذ إله آخر والتحذير من ذلك "وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون " فلم يتأثروا بشئ من ذلك وجعلوا لله البنات فقال سبحانه " ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون " [الآية : ٦٢]

تلك هى عاقبة الافتراء والكذب على الله سبحانه ومع كل ذلك يؤكدون أن لهم الحسنى ، فكان لابد من القطع ببيان مصيرهم تفنيداً لقولهم وبيانا لكذبهم وضلالهم واستكبارهم فكان هذا السياق " لا جرم أن لهم النار " ذاك العذاب الذى اكتسبوه وحصدوه من افترائهم على كلام الله بقولهم " أساطير الأولين " واجتهادهم فى القسم بأن الله لا يبعث من يموت وجَعْلهم لله ما يكرهون " وقولهم بألسنتهم كذبا وبهتانا " أن لهم الحسنى " ، وقال " بألسنتهم " لبيان أنه قول لا يُعتقد ولا يصلح للتيقن.

هذه أمور تثير من يسمعها من المؤمنين فما بالنابسيد المؤمنين وإمام المرسلين الحريص على هدايتهم واستجابتهم وكبح عنادهم وردهم عن غيهم وضلالهم ؟ الأمر بلا ريب يحتاج إلى قسم يؤكد مصيرهم ويبطل افتراءهم ويحقق كذبهم وإسرافهم فى الغرور والطغيان فكان قوله سبحانه " لا جرم " المؤدية معنى القسم ، بل القسم بها هنا أقوى من القسم الصريح بلفظ القسم لما فيها من قطع بهذا المصير وبيان اكتسابهم له ، وفيها أيضا بيانٌ بإزهاق باطلهم وانتصار للحق فلا عبرة بكل هذه الأقوال والأفعال فمصيرهم محتوم ، وأرى فيها أيضا معنى التسلية المشعرة للنبى بانتصاره وقد تجلت هذه التسلية فى الآية بعدها "تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم " تلك تسلية واضحة أشعر بها الأسلوب قبلها "لا جرم ... "

يلاحظ من ذلك أن " لا جرم " هنا دلت علىٰ أمور منها : أنهم أكدوا كذبهم بعد كل هذا الافتراء بأن لهم الحسنى فاستدعى المقام أن يأتى الرد محققا ، وليس أدل عليه من " لا جرم " التى أغنت عن القسم ودلت على القطع بعكس ما حققوه " أن لهم الحسنى " واختلف العلماء فى تفسير الحسنى على أقوال فقيل قولهم (لله البنات ولنا البنون) وقيل الحسنى " الجنة " ويؤيده " لا جرم أن لهم النار " والمعنى على هذا يجعلون لله المكروه ويدعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر (إن لهم) بكسر الهمزة وإن جواب قسم أغنت عنه لا جرم ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو رجاء وشيبة ونافع وأكثر أهل المدينة (مُفْرطون) بكسر الراء من أفرط حقيقة أى متجاوزون الحسد فى معاصى الله ، وباقى السبعة بفتح الراء من أفرطته إلى كذا قدمته معدى بالهمزة من فرط الى كذا تقدم إليه)(١) فقراءة الكسر فيها دلالة على إفراطهم فى الافتراء والكذب مما أدى الى اكتساب الذنوب الكثيرة الدالة عليها (لا جرم)

---

(١) البحر المحيط : لأبى حيان ٥٠٦/٥ ـ دار الفكر .

وقراءة الفتح تدل كما قال الرازى على أنهم قدّمُوا إلى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم (١) وهذا أقرب لدلالة (لا جرم) فكلاهما يحقق الآخر فى الدلالة على ثباتهم ومآلهم فيها نقضا لرؤياهم (أن لهم الحسنى) ، ومن هنا قال بعض العلماء : إن (لا) فى (لا جرم) رَدّ لقولهم هذا ، والمعنى ليس الأمر كما وصفوا ، جرم فعلهم أى كسب ذلك القول لهم النار ، فعلى هذا لفظ " أن " فى محل النصب بوقوع الكسب عليه ، وقال قطرب (أن) فى موضع رفع ، والمعنى وجب أن لهم النار ، وكيف كان الإعراب فالمعنى هو أنه يحق لهم النار ويجب ويثبت (٢) أى أن اختلاف وجوه الإعراب لا يؤثر على المعنى المراد الذى يوضحه السياق وتتآزر الألفاظ فى بيانه وهو تحقيق أن لهم النار وأنهم فرَط لمن بعدهم فيها وأن هذا حكم مقطوع به وأنهم اكتسبوه واستحقوه بإفراطهم فى الإجرام المتمثل فى الافتراء والكذب وادعاء أن لهم الحسنى مع كل ذلك . والأولى أنه تركيب واحد يجرى مجرى المثل ويشعر بكل هذه المعانى المنبثقة من وحى العبارات ودلالات السياق المثبت لهذا المصير والقاطع به والدال على تسببهم فيه وأنه ناجم من صنيعهم ومترتب على جحودهم وضلالهم.

وهذا الوصف بالإفراط (مفرَطون) بالفتح والكسر على أن المراد أنهم معجلون ومسوقون إلى النار وأنهم فرط فيها لمن يأتى بعدهم أو أنهم أسرفوا فى التجرؤ على الله فنالوا جزاءهم وعلى أى من الحالتين فمعنى (لا جرم) موجود هنا أيضا أى لا جرم أنهم مفرطون وهو على تلك الشاكلة وصف فريد فى كتاب الله حيث قال (مفرطون) بالصياغة الاسمية الدالة على ثباتهم على هذا الوصف واستقرارهم عليه ، فقراءة الكسر تدل على استقرارهم فى النار وقد تعجلوا إليها وتُركوا فيها ولا مصير لهم سواها وهذا كائن فى معنى (لا جرم) .

---

(١) ينظر تفسيره ٢٠ / ٦٢ .
(٢) ينظر السابق ٢٠ / ٦٢ ، ٦٣ .

وقراءة الفتح تدل على إسرافهم فى الافتراء وتجاوز حدودهم فيه وهو أيضا يدعم ما طوته (لا جرم) وما أريد بها حيث وضعت هذا الموضع ، ولو قال (يفرطون) لتنافى ذلك مع القطع والتحقيق المنبثق من دلالة (لا جرم) بين سياقها والموضح ثباتهم على هذا الافتراء وعدم تزحزحهم عنه .

وقد جاءت المادة (فرط)بدلالة المصدر فى آية واحدة فقط فى كتاب الله فى قوله تعالى مخاطبا حبيبه صلى الله عليه وسلم ولا تطع من أغلفنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا " [الكهف / ٢٨]

وفيه قال بعض العلماء يحتمل أن يكون وصفا على فعل كقولهم فرس فرط أى متقدما على الخيل ، وكذلك هذا أى متقدما على الحق وأن يكون مصدرا بمعنى التفريط أو الإفراط والإسراف ، والظاهر أنه مصدر أفرط فى الأمر أى جاوز الحد وعليه فيكون مصدرا سماعيا لا قياسيا (١) وما عدا ذلك جاءت فيه المادة بصياغة الفعل كقوله تعالى على لسان موسى وهارون " قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى " طه /٤٥]

وكقوله تعالى " أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ " [الزمر /٥٦] وهكذا لم تأت المادة بدلالة الاسم إلا فى شاهدنا وآية الكهف وكل منهما يدل على تجاوز الحد والاسراف فيه وقد تجلى الاسراف فى سياق شاهدنا كما سبق مما جعل الحكم قاطعا دلت عليه " لا جرم "

الشاهد الثالث من أساليب (لا جرم) فى سورة النحل وهو الرابع فى شواهد هذا الأسلوب فى القرآن الكريم جاء فى السورة الكريمة بعد سبع وأربعين آية من الشاهد السابق تحدثت عن أمور كثيرة تطبيبا لهذه القلوب المنكرة استكباراً وافتراء فكان إنزال هذا الكتاب تبيانا لما اختلفوا فيه ،

---

(١) ينظر الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للعجيلى الشهير بالجمل ٣/٢١ طبع الحلبى .

وهداية ورحمة لمن آمنوا به وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " الآية ٦٤ .

ثم ساقت بعض النعم المنصوص عليها أول السورة وزادتها تفصيلاً ليعلموا أن هذه النعم لها إمدادات لا حد لها ثم ساقت نعمة جديدة اختصت بها السورة وهى نعمة النحل (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) ثم ساقت نعما أخرى وكلها يقصد بها التدليل على وحدانية الواحد وقدرته ومع كل هذا زاغت قلوبهم فلم ينفع معها علاج دل على ذلك (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون)الآية ٧٣ .

وهذه أول مرحلة هنا من مراحل الافتراء والانحراف بعد بيان هدف الكتاب المنزل والنعم المبينة ، ثم نهاهم عن ضرب الأمثال لجهلهم بذلك وضرب لهم الأمثال التى تميز الحق من الباطل وليعلموا أن الله هو الحق وأن شركهم هو الباطل وكل الأدلة المذكورة تشهد بذلك وهم أنفسهم يعرفون ذلك بدليل قوله تعالى : " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون " الآية ٨٩ ، ثم ذكر لهم أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته دون سواه ممن يعبدونهم من دونه منها قوله تعالى " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " الآية ٧٨ ولكنهم استخدموا هذه الحواس فى الباطل وفصل لهم قدرا آخر من النعم ومع ذلك ظلموا انفسهم وكفروا وصدوا غيرهم عن سبيله فأعطاهم هذا الحكم الزاجر " الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون " الآية ٨٨ . حيث لم يكتفوا بإفساد أنفسهم فأفسدوا غيرهم ، ثم حثهم على الخير وكرائم الأخلاق ، وأعطاهم ترهيبا آخر من الافتراء تجلى فى قوله "إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون " [آية : ١٠٥] جاء هذا بعد أن اتهموا النبى بالافتراء إذا حدث نسخ فى آية من آيات الله كما تبين فى قوله تعالى " وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون" [آية :١٠١] وأعظم من كل هذا أنهم ضلوا غيرهم

فكفروا بعد إيمان أولئك الذين خُتم بهم الموقف ونصت الإشارة عليهم حيث كانوا نتيجة عمل المستكبرين " ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون " [الآيات : ١٠٧-١٠٩]

هذه هى النتيجة بعد صبر ومثابرة وكدٍ ومكابدة بلّغ بها النبى ما أنزل إليه من ربه فيها وعدٌ ووعيد وترغيب وترهيب وإنذار وتبشير وإجمال وتفصيل وتعليم وتوضيح لكل ما يقود إلى الخير أو يصرف عن الشر ، وبعد كل ذلك اشتروا الكفر بالإيمان فطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، تلك هى النعم الجليلة التى ذكرهم بها من قبل فى قوله تعالى " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " [آية : ٧٨] لا تكفرون فكفروا ولم يشكروا فطبع عليها وكأنها لم تكن وحكم عليهم هذا الحكم (أولئك هم الغافلون) فليس هناك أغفل منهم لأنهم طبعوا أنفسهم على التغافل والتعامى عن كل ما هو حق ولم يكن دخولهم الإيمان صادقا فصاروا كالأنعام بل هم أضل لأن الأنعام تنقاد فتقاد ولا تعارض إلا فى الوقوع فى الهلاك ، فإنها تعارض فيه وتنفر منه ولا تقع فيه طواعية ، وهؤلاء يعرفون الحق ثم ينكرونه جحودا وتكبرا وحبا فى الجدال والافتراء ولذلك وسموا بالغفلة .

قال الزمخشرى " الكاملون فى الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم لأن الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها " (١)

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٠ – دار المعرفة .

وتلك غفلة متعمدة لا سهو فيها وخير دليل على ذلك قوله تعالى " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ... " فضلا عن الشواهد الدالة على اتباعهم الباطل وعبادتهم غير الله وهم مغمورون فى نعمه ، وجزاء الغافل عمدا بعدم ثباته على الحق والعودة إلى جحوده وكفرانه ما أقسم عليه ربنا وقطع به (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ...)

قال فخر الدين الرازى " واعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن الله وصفهم فى الآيات المتقدمة بصفات ست :

الصفة الأولى : أنهم استوجبوا غضب الله .

الصفة الثانية : أنهم استحقوا العذاب الأليم .

الصفة الثالثة : أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

والصفة الرابعة : أنه تعالى حرمهم من الهداية .

والصفة الخامسة : أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

والصفة السادسة : أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون فى دفعها فثبت أنه حصل فى حقهم هذه الصفات الست التى كل واحدة منها من أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات ، ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذى يشترى بطاعاته سعادات الآخرة ، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب قال (لا جرم أنهم فى الآخرة

هم الخاسرون) أى هم الخاسرون لا غيرهم والمقصود : التنبيه على عظم خسرانهم والله أعلم) (١)

ومعنى ذلك أن الذين أوقعوهم فى الضلال لم يخسروا شيئا بل اكتسبوا فريقا وافقهم على الكفر والافتراء وعادوا لما نهوا عنه واتبعوا الجاحدين فى قولهم لرسوله (إنما أنت مفتر) وغير ذلك واستحقوا معهم العذاب الأليم بقولهم (إنما يعلمه بشر ...) وعدم إيمانهم به واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة لشرح صدورهم بالكفر وهو السبب فى قطع الهداية عنهم جزاء فعلهم هذا ، ولما لم يتدبروا العواقب واستماتوا فى غفلتهم كان الطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وهذه الاستجابة فى الكفر والافتراء والصد وعدم الاعتبار بالنعم المذكورة والشاهدة على غيرها والدالة على عظمة الواحد والموجبة تفرده بالألوهية وأن ما يدعو إليه رسوله منزل من عند الله كل ذلك وغيره أوجب لهم هذا الخسران الكامل .

قال البقاعى " هم (خاصة) " الخاسرون أى أكمل الناس، لأنهم خسروا رأس المال وهو نفوسهم ، فلم يكن لهم مرجع يرجعون إليه (٢) فلتكامل الغفلة فيهم تكامل الخسران وليس أدل على حتمية هذا وأحقيته وثباته لهم من (لا جرم) التى لم يأت التعبير بها فى أمر مقطوع به إلا بعد أمور استوجبت لهم ذلك فكأنهم زرعوا ثم حصدوا . زرعوا ١ - الجحود بنعمة الله والكفر بها وقد أنكرت عليهم الآيات ذلك " أفبنعمة الله يجحدون " أفبا لباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون " وتمثل ذلك فى أنهم اتبعوا من جعلوا لله شركاء معتقدين فيها النفع فاستوجب ذلك هذه النتيجة (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) ونص على الآخرة لأن خسارة الدنيا بعد ذلك أمر مفروغ منه فقد كسبوها بإيمانهم ثم خسروها بعد كفرهم واتباعهم للمشركين فى الافتراء والتكذيب وذلك ما جلاه قوله سبحانه "

---

(١) تفسيره ج٢٠ / ١٢٦

(٢) نظم الدرر ج٤ /٣١٥ .

من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم " [آية : ١٠٦] فهؤلاء الذين افتتنوا وجحدوا لم ينالوا فى الدنيا خيرا وكان لهم فى الآخرة كمال الخسران حيث آمنوا بالباطل وكفروا بالحق .

٢ – رزعوا أيضا عدم التنبه لهذا التحذير الشديد (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون " [آية :٩١] و " ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ..." [آية : ٩٢] وهذه توكيد وتحقيق للتى قبلها زيادة فى التشنيع بمن يفعل ذلك وتأكيدا للتحذير من عاقبته المقطوع بها بعد لأى ولأواء جلته السياقات حيث كانت النهاية هذا الجزم بخسرانهم " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون "

٣ – زرعوا الصدّ عن كل تنبيهٍ وتحذير فكان هذا بعد تحذيرات كثيرة وبعد اتهامهم للنبى صلى الله عليه وسلم بالافتراء كقولهم تارة (أساطير الأولين) وأخرى (إنما أنت مفتر) أى مخترع مختلق وهذا يعنى الكذب ، وجاء الرد عليهم بعد ذلك بما تأنس به النفس " قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين " [آية :١٠٢] ولكنهم لم يثبتوا على إيمانهم ولم ينزجروا ولم يعتبروا بالنعم ، وكلما عادوا فى تكذيبهم عاد الحق فى إقناعهم حتى ختم لهم المآل [العالم يوجد منهم بدّ فى التكذيب والافتراء] بهذا المصير " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون " أى الثابتون على خسرانهم الأول دون تأثر بدين الحق .

جاء ذلك ردًّا على كل تكذيب كذبوه وكل اتهام حدث منهم وكل خلل أوقعوا أنفسهم فيه بصدهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل واقتناعهم به أو الضغط على أنفسهم بمحاولة إقناعها اتباعا للهوى وتمسكا بالضلال ، فكانت (لا جرم) أقوى الأساليب دحضا لكل هذه الافتراءات وتكذيبا لكل هذه الادعاءات فجاء التعبير بذلك ليبين لهم خسرانهم حقا لا تهديدا وأن

هذا مصير لابد منه ، فكأن (لا جرم) تجميع للرد على كل هذه المواقف وقطع ببيان عاقبتها ، وهكذا رأيناها فى كل شواهدها السابقة .

سر تكرار (لا جرم) فى سورة النحل خاصة :

سبق أن أشرت إلى أن سورة النحل استهلت بآية جامعة لجل مواقف المشركين المفصلة فى السورة من إنكار البعث واستعجالهم العذاب المعدّ لهم يوم القيامة وكثرة شركهم بالله وأن السورة عالجت هذه الأمور بالترغيب تارة والترهيب أخرى وتخللت ذلك (لا جرم) ثلاث مرات والسبب فيه :

أن سورة النحل ، وتسمى أيضا سورة النعم ساقت لهم من النعم مالا يجحد ولا ينكر ولا ينبغى ذلك فيه لأنها نعمٌ ، مُعَايَشة ظاهرة وباطنة تُلزم أقسى القلوب أن يقابلها بالشكر والإقرار بوحدانية الخالق والتسليم المطلق له فى كل ما أنزل والاعتراف بكل ما أنعم والتأمل فى خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان ثم قال بعد ذلك (والأنعام خلقها ...) بتقديم المفعول فيها خاصة لبيان الاهتمام بما فيها من منافع كانت سببا فى معيشتهم أجملتها أول السورة ثم فصلتها شيئا فشيئا بعد ذلك ، مرة فى قوله " وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " [آية : ٦٦] وكفى بها نعمة جديرة باقتلاع جذور الشرك والجحود من نفوسهم ، فلما لم يحدث بين لها تفصيلا آخر تجلى فى قوله " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين " [آية : ٨٠] ثم نعمة إنزال الماء من السماء لا يقدر عليه غيره ونعمة التسخير على عمومها واختلافها وفى النهاية هذا نموذج من النعم " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم " [آية : ١٨]

أفبعد كل هذا وغيره يشرك به ويدّعى غيره بالألوهية وتنكر نعمه ويقع الإيمان بالباطل ؟!!

فلما كانت هذه السورة أكثر سور القرآن اهتماما بهذه المنافع وسردا لهذه النعم التى يتعيشون بمنافعها ويستدفئون بأصوافها ويسكنون تحت جلودها ، واستقلت بنعم ليست فى غيرها كنعمة النحل وإلهامها كيف تسكن وكيف تأكل ليكون ما فى إخراجها خصوصية (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) وكذلك جمعت السورة قدرا من النعم لم تجمعه سورة أخرى من الطوال أو من القصار كما أن الترغيب فيها أكثر من الترهيب لما فيها من نعم تجذب العقول العاقلة وتلين القلوب الواعية وتجبر على التوحيد لخالق النعم ، كذلك التحذير من الشرك نعمة ، وبيان مصائر المتقين نعمة وضرب الأمثال التى تبين الحق من الباطل نعمة وتعليم الوفاء بالعهد وعدم نقضه نعمة وكل نعمة لبست ثوب التحذير إنما هى نعمة تذكرٌ ، فلما لم يحدث بين كل ذلك تذكرٌ "قالوا أساطير الأولين " و " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت " وأمنوا مكر الله ولم يعتبروا " أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف ... " وجعلوا له ما يكرهون وكذبوا (ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى...) كان لابد أن يعقب هذا الاستكبار إذلال ويعقب العودة إلى الكفر بعد الإيمان إقحام فى الخسران .

فلما لم تنفع النعم فى الردع والتذكير والعظة والاعتبار ولم يثمر التذكير بما لحق أمثالهم من السابقين الجاحدين كان حتما أن تختم المصائر بما يقطع بخسران الباطل الذى اتبعوه وانتصار الحق الذى اتهموه "وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب " [غافر/٥٢] فكان سبب تكرار " لا جرم " فى هذه السورة خاصة هو قوة معالجة الجاحدين المفترين المتكبرين بالتذكير بالنعم العظيمة الدالة على وحدانية الواحد ولما لم يحدث اعتبار تردد هذا الأسلوب (لا جرم) ليقطع

بمصيرهم حينا بعد آخر ، وكانت قوة هذا القطع فى المعنى واحدة ، ولكنها تدرجت فى ظاهر اللفظ ، فجاءت (لا جرم) الأولى فى السورة منوطة بعلم الله سرهم وعلنهم وبغضه للمستكبرين (لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين " تعريضا بمن يزعمونهم آلهة وأنهم لا يعلمون شيئا فضلا عن أنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون وهذه طوى فيها جانب العذاب لأنها جاءت بعد فيض من النعم وبعد حديث الحق عن ذاته العلية التى لا يضرها جحودهم ولا يهزها طغيانهم فلما فعلوا بعد ذلك ما يضايق حامل الرسالة ومبلغ الوحى (لأنه بشر) وقالوا (أساطير الأولين) وأنكروا البعث جاهدين فى إقسامهم على ذلك (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وخلطوا فى تصرفاتهم وافتراءاتهم (ويجعلون لمالا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) و (ويجعلون لله البنات) وجزموا بأن لهم الحسنى ، لما حدث كل هذا ازداد سياق (لا جرم) الثانية قوة فى اللفظ ليروا ظاهر العذاب بعد أن لم يعتبروا به وقد طواه السياق فى (لا جرم) الأولى فقال (لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أى مزجون فيها ومقدمون إليها على قراءة الفتح أى فتح الراء أو ازداد إسرافهم فى الكذب والافتراء على قراءة الكسر فازداد التشنيع بهم وظهر بعد أن كان مضمراً

وعاد يذكر بخصوصية الكتاب وما فيه من بيان ورحمة ، ويُذكّر بأخص خصائص النعم ويستنكر عليهم جحودها وكفرها ، ولم يقلعوا عن الاتهام بالافتراء بل ضلوا بها فريقا دخل الإيمان تحت الترغيب فى الدنيا أو الإكراه على الكفر فتقضوا العهد بعد أن جعلوا الله عليهم كفيلا وشُرحت صدور فريق منهم بالكفر فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفى هذه المرحلة علا ظاهر العذاب حاكما بالطبع على القلوب والأسماع والأبصار ، والتناهى فى الغفلة مما أدى إلى الخسران الأعظم (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) وهذا الامتداد يدل على عظمة الخسران وعلوه .

فكان السبب فى تكرار (لا جرم) هنا هو تكرار النعم وتفصيلها مرة بعد أخرى ، وكلما علا التفصيل علا الوعيد وازداد القطع بظهور العذاب .

وكذلك لما كانت للسورة خصوصيات فى النّعيم كان لها خصوصيات فى الوعيد ، فلم تتكرر (لا جرم) فى سورة أخرى سواها، ولكل سورة فوائد .

بقى من شواهد (لا جرم) فى القرآن الكريم شاهد واحد جرى على لسان بشر وهو رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه نهاهم عن قتل موسى عليه السلام مستنكرا عليهم ذلك (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ..) [غافر / ٢٨] ووجه لهم النصح والإرشاد كثيرا ، وحذرهم من بأس الله " فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) [٢٩] وبين لهم إخلاصه وخوفه عليهم (إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) ٣٠ " ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد " ٢٨ وتدرج نصحه لهم بالتحذير والتخويف حتى ارتقى إلى صيغة الأمر (وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) ٣٨ وبعد أن فرق لهم بين سئ الأعمال وصالحها ومصير هذا ومصير ذاك بعد ذلك (وازن بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذى ثمرته النجاة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذى عاقبته النار وحذر وأنذر واجتهد فى ذلك واحتشد لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين (١) تجلى ذلك فى قول الحق على لسانه " وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *

(١) الكشاف ٤٢٨/٣ .

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ " [غافر / ٤١-٤٥]

هذا مشهد من مشاهد جلتها السورة يوضح حرص الرجل المؤمن على قومه وحرصه على بقاء دين الله فيهم وعدم قطعه عنهم وأنه لا نجاة إلا فى ذلك ومن ثمَّ تعجب من عدم استجابتهم له بعد كل هذه التوجيهات المشوبة بالتذكير بشأن السالفين تارة وبالتخويف من عذاب الله أخرى فقال " مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار " ؟!! فالنجاة طريقها دين الله وقد ذكر لهم من الأدلة ما يكفى ، والنار لها طريق هو الكفر والشرك لذلك قال وتدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم " أى لا أعلم أحداً يستحق أن يدعى سوى الله .

قال الزمخشرى " والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كأنه قال : وأشرك به ماليس بإله ، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلاها " (١) فالذى تدعوننى إليه لا دليل عليه ولا أعلم عنه شيئا وأنا أدعوكم إلى الغالب الذى لا يغلب القاهر الذى لا يقهر ، ومع ذلك فهو غفار " وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار " ولم تقترن صفة (الغفار) فى القرآن الكريم بغير (العزيز) مع تقديم العزيز ، (وفيها إشارة إلى استجماع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران ، وخصهما لاستلزامهما ذلك ولما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء المناسب لحاله وحالهم) (٢) فلما أراد منهم النجاة ودعاهم إليها بحيث لا ينقطعون عنها بدليل التعدية بـ (إلى) التى تفيد الإنتهاء (أدعوكم إلى النجاة) ترغيبا فى دوام النعيم وتدعوننى إلى عكس ذلك ولم يجد منهم جديدا ولا حراكاً عماهم عليه ولا اعتبارا بما أرشدهم إليه ولا مبالاة بما خوفهم منه ورغبهم فى اللجوء إليه فإنه مع

---

(١) السابق ٣ / ٤٢٩ .
(٢) ينظر روح المعانى ٢٤ / ٧١ .

قدرته وعزته غفار ، لما لم يجد منهم استجابة ولا اقتناعا قطع ببيان شأن ما يدعون إليه فقال :

" لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار "

هذا القطع والتحقيق فى أسلوب " لا جرم " يتجلى منه أمور :

الأول : أن الملاينة فى القول والإرشاد لم تصلح معهم فقطع لهم بحقيقة ما يدعونه من دون الله إن كان بشرا كـ (فرعون) فإنه لا يستطيع أن يحجب عنهم عذابا ولا يقبل لهم دعاءً ، وإن كان صنماً فلا فائدة فيه البتة وهذا وذاك ليس له شأن بل هو عديم النفع على الإطلاق

الثانى : فى الأسلوب أيضا إشارة خفية إلى أن القطع ببطلان ما يدعون من دون الله قطع دائم لا ينقلب حقا أبدا ، ولذلك قال بعض العلماء :

"ويجوز أن يقال إن (لا جرم) نظير (لابد) فعل من الجرم وهو القطع كما أن (بد) فعل من التبديد وهو التفريق ، فكما أن معنى لابد أنك تفعل كذا بمعنى لابد لك من فعله فكذلك – لا جرم أن لهم النار أى لا قطع لذلك بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام أى لا تزال باطلة لاينقطع ذلك فينقلب حقا" (١)

وكذلك كل ما يعبدون من دون الله باطل أبدا لا نفع له فى أمور الدنيا ولا فى أمور الآخرة .

الثالث : هذا القطع بعدم نفع كل ما يُعبد من دون الله دليل على أن النفع كله والنجاة كلها فى دين الله ولذلك قال " وأن مردنا إلى الله" وهنا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٩ .

يستمر معنى " لا جرم " وتقدير الكلام ولا جرم أن مردنا إلى الله " ففيها نفس القطع الذى رأيناه هناك بالإضافة إلى ما فيها من وعيد وتهديد أى هناك ألقى جزائى وتلقون عقابكم ثم أشعرهم بهذا العقاب وكأنه محدد محتوم لمن صنع صنيعهم فقال " وأن المسرفين هم أصحاب النار " وتقدر فيه أيضا لا جرم فالمعنى باق وإن حذف اللفظ .

ومعلوم أن المسرف فى اللغة هو الذى تجاوز حده فى كل شئ ، ولكنهم اختلفوا فى تفسيره هنا (فقيل هم المشركون) وقيل (السَّفَاكُون للدماء بغير حلها) فيكون المؤمن قد ختم تعريضا بما افتتح به تصريحا فى قوله (أتقتلون رجلا) ، وقيل : من غلب شرهم على خيرهم ... (١)

والأولى أن يُفسر الإسراف على ظاهره اللغوى بأنه مجاوزة الحد فى كل شئ ويكون المراد هنا مجاوزة الحد فى الإفساد فى الأرض واتباع الباطل لأن الإسراف لم يتوقف على القتل فقط كما أنه لم يحدث منهم قتل لموسى عليه السلام ولو استطاعوا لفعلوا حيث تحقق وعد الله بقوله بعد ذلك " إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد " الآية ٥١ .

فهذه الجمل الثلاث (دعوتهم لغير الله – مردنا إلى الله – المسرفين هم أصحاب النار) تأخذ حكم " لا جرم" بما فيها من ثبات هذه الأمور والقطع بها قطعا لا محيد عنه ولا رجعة فيه .

والأولى من هذه الجمل (لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) تقابل (العزيز الغفار) بما فيها من ذلة وهوان فى مقابلة العزة والاقتدار ثم يختم الرجل موقفه معهم بثلاثة تهديدات أخرى أولها " فستذكرون ما أقول لكم " كما تقول لمن لم يستجب للنصح والإرشاد سوف ترى .

---

(١) ينظر السابق ٣ / ٤٣٠ وروح المعانى ٢٤ / ٧٢

لذلك يقول الرازى (وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل فى الدنيا ... وأن يكون يوم القيامة وبالجملة فهو تحذير شديد) (١) وهذا أيضا من مستتبعات القطع فى سياق (لا جرم) فهو تدرج فى الوعيد المقطوع به لأنهم فعلا سيذكرون ما أرشدهم إليه وما خوفهم به حيث يحل بهم عذاب الله إن فى الدنيا لو عجل لهم وإن فى الآخرة لو أمهلهم فحتما سيذكرونه .

ثانيها ما قابل به مكرهم وتهديدهم البادى من عدم استجابتهم بقوله " وأفوض أمرى إلى الله " مُعَبِّراً بهذا الاسم الأعظم الذى يشعر بالهيمنة والسلطان والقوة فهو الذى يدفع عنى ظاهر شركم وباطنه ، وفى هذا تخويف خفى يقابل تخويفهم وقيل التفويض ألطف إشارة وأوسع من التوكل ، وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه (٢) ومن ثم عبر به " وأفوض أمرى إلى الله " أى حالى كله .

فالذى قطع بعدم النفع المطلق لما يدعون من دون الله ، وبأن مرد الجميع إلى الله وبأن المسرفين هم أصحاب النار ، الذى هداه الله لكل هذا لابد أن يكون قاطعا فى التفويض المطلق للذى هداه . وآخر هذه التهديدات " إن الله بصير بالعباد " حين تقال للمُعْرِض عن أمر الله فإنها تكون أبلغ تهديدا وأوقع تخويفا فى نفسه حيث فيها معنى الرَّصْدُ لكل قول ولكل عمل ظاهرا وباطنا ، وفى لسان العرب : البصير فى أسماء الله تعالى الذى يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة (٣)

وهذا كله داخل فى معنى التحقيق والقطع الدال على تآزر أسلوب (لا جرم) مع السياق والقصد .

---

(١) ينظر تفسيره ٢٧ / ٧٢
(٢) ينظر نظم الدرر ٦/ ٥١٩ .
(٣) ينظر مادة (بصر)

خلاصة هذه المواقف القرآنية :

تجلى مما سبق أن أسلوب (لا جرم) ورد فى القرآن الكريم خمس مرات الأولى فى عاقبة الكذب على الله والافتراء على رسوله صلى الله عليه وسلم فقطع فيها ببيان خزى المفترين ومصير المكذبين " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون " وجاءت المبالغة فى الخسران على قدر المبالغة فى الكذب والافتراء حيث تمكن ذلك فى عقولهم وقلوبهم مما أدى إلى تمكن الخسران منهم فى الدنيا والآخرة .

وجاءت الثانية بعد بيان نعم الله المختلفة من الخلق والإنزال والتسخير وعلامات الاهتداء فكانت أكبر من أن يُحدد فيها نوع العذاب لأنها فى حديث الحق عن نفسه وبيان نعمه فجاء الوعيد غير مباشر وهذا أشد وأنكى " لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين "

أما الثالثة فجاءت بعد افتراء على كلام الله والقول بأنه أساطير الأولين وإقسام على أن الله لا يبعث من يموت ، وجعلهم لله ما يكرهون من الخلق ومع كل ذلك يكذبون ويؤكدون أن لهم الحسنى ، فكان الرد طبيعيا بالقطع بمالهم (لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أى لهم النار بما قالوا وما فعلوا وقد تجاوزوا حدهم وأسرفوا فى هذا الأمر وفى هذا السياق طوت (لا جرم) القطع بأمرهم ، وفيها انتصار للحق وسحق للباطل وأشعرت بتسلية النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت مقدمة للتسلية الجلية فى الآية بعدها الدالة على أن الرسل من قبله قد ابتلوا بما ابتلى به وكانت نتيجة موقف المعاندين أيضا " ولهم عذاب أليم "

اما الرابعة فجاءت خلال حديث الحق سبحانه وتعالى عن قوم آمنوا ثم كفروا اتباعا للمشركين الذين زينوا لهم الباطل فى صورة الحق وأطمعوهم فيه وأقنعوهم به فجحدوا نعمة الله وهم يعرفونها فطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ووصفهم بالغفلة المتعمدة وبين أن ما كسبوه

وما اكتسبوه جرم لهم الخسران الأعظم فكانت العاقبة " لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون "

أما الخامسة : فجاءت فى حديث مؤمن آل فرعون بعد توجيه ونصح كثيرو إرشاد نفيس بكل الطرق ترهيبا وترغيبا غير أنه لم يجد ثمرة فقابل كل ما قدمه من ملاينة بالقطع بهوان من يدعون من دون الله وعدم نفعه فى الدنيا والآخرة وقطع لهم بالوعيد الدائم والمصير المحتوم كما جلته الآيات وهى قريبة عهد بهذه الخلاصة التى أردت بها تذكير القارئ بالمواقف التى جاء فيها هذا الأسلوب (لا جرم) فى القرآن الكريم ليتبين أنها مواقف قطع بمصير الصادين عن دين الله الجاحدين له المستكبرين تجاه قبوله والإذعان له المفترين على كتبه ورسله وعلى جنده لإرشادهم الى الحق كما أن التعبير بها جاء بعد طب إلهى دام ولم يثمر فكان الهلاك بقدر النفع والجزاء من جنس العمل دَحْضا للباطل وانتصارا للحق .

هذا وبالله التوفيق " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين "

أهم المصادر

ارتشاف الضرب من لسان العرب : لأبى حيان تحقيق وشرح : د / رجب عثمان – الخانجى .
البحر المحيط : لأبى حيان – دار الفكر .
البرهان فى علوم القرآن : للزركشى تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم – دار التراث
البيان فى غريب إعراب القرآن : لأبى البركات بن الأبنارى تحقيق : د / طه عبد الحميد – الهيئة المصرية العامة للكتاب
الجنى الدانى فى حروف المعانى : تحقيق د / فخر الدين قباوة – دار الآفاق الجديدة – بيروت
الخصائص : ل ابن جنى : تحقيق : محمد على النجار – الهيئة العامة للكتاب
العين : للخليل بن أحمد
الفتوحات الإلهية : للعجيلى الشهير بالجمل – طبعة الحلبى
القاموس المحيط : للفيروز ابادى
الكتاب : لسيبويه تحقيق : عبد السلام هارون = دار الكتب العلمية
الكشاف : للزمخشرى – دار المعرفة – بيروت
المثلث : ل ابن السيد البطليوسى تحقيق : د / صلاح الفرطوسى – دار الرشيد بالعراق
المحكم والمحيط الأعظم : ل ابن سيده
المفردات فى غريب القرآن : للراغب الاصفهانى – مكتبة الأنجلو المصرية
الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز : لأبى عبد الله الحسين بن محمد الدامغانى تحقيق : محمد حسن أبو العزم المجلس الاعلى للشئون الإسلامية
تفسير الفخر الرازى – دار الفكر
ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب : للثعالبى تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم – دار المعارف

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : تحقيق عبد السلام هارون الخانجى
درة التنزيل وغرة التأويل : للإسكافى – المكتبة التوفيقية .
ديوان ابن هانئ – دار صادر – بيروت – لبنان
ديوان بديع الزمان الهمزانى – تحقيق : يسرى عبد الغنى عبد الله – دار الكتب العلمية – بيروت
ديوان الشريف الرضى تحقيق : د / إحسان عباس – دار صادر بيروت
رو المعانى : للألوسى – دار الفكر
شرح التسهيل : لابن مالك تحقيق : د / عبد الرحمن السيد - هجر للطباعة والنشر
شرح الكافية الشافية : لابن مالك تحقيق : د / عبد المنعم هريدى - مركز البحث العلمى وإحياء التراث بجامعة ام القرى
عيون الأخبار : لابن قتيبة – الهيئة المصرية العامة للكتاب
فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن : لأبى يحيى زكريا الأنصارى تحقيق : الشيخ محمد على الصابونى – مكتبة الصابونى
لسان العرب – طبعة دار المعارف
معانى القرآن : للفراء تحقيق : أ / محمد على النجار – الدار المصرية للتأليف والترجمة
معجم الأدباء : لياقوت الحموى ط ٣ ١٩٨٠ م – دار الفكر
معجم مقاييس اللغة : لابن فارس – دار الكتب العلمية
نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى – دار الكتب العلمية – بيروت
يتيمة الدهر تحقيق : د / مفيد قميحة – ط١ ١٩٨٣ م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

فهرس الموضوعات

أسلوب لا جرم

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩٤٧
أسلوب (لا جرم) ودلالته البلاغية في اللغة والقرآن الكريم	٩٤٩
معناه في اللغة	٩٤٩
لا جرم ومعنى القسم	٩٥٥
سر تكرار لا جرم في صورة النحل خاصة	٩٨٣
خلاصة هذه المواقف القرآنية	٩٩١
أهم المصادر	٣٩٣
الفهرس	٩٩٥